الحجاج في خطبة طارق بن زياد

ياسين بلعباس
مديرية التربية/الاغواط

الملخص:

تعتبر خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس أنموذجا راقيا للخطبة ذات المحتوى العسكري،والمرصّعة بفنون القول وجمال العبارة ودقة الأسلوب.وحاولتْ هذه الدّراسة أن تحللها بالمقاربة الحجاجية لإظهار ما قام به الخطيب من إقناع جنده لاقتحام المعركة وبلوغ الهدف الذي قطع من أجله المضيق، وأحرق خطّ الرجعة نهائيا إلى المغرب. وما هي قواعد هذا الحجاج الذي أقنع من خلاله جنده وانتهى إلى فتح البلاد وقتل قائدها وأسر الألاف من جنودها.

***Abstrat* :**

Tariq ibn Ziyad's speech in the conquest of Andalusia is a fine example of the sermon with military content, and is studded with the art of saying and the beauty of the phrase and the accuracy of style. This study was analyzed by the approach Argument to show what Spellbinder did to convince his soldiers to break into the battle and achieve the goal, The final return to Morocco. And what are the rules of this arguments , .who persuaded the soldiers and ended up to open the country and killed the commander and captives a thousands of soldiers

الكلمات المفتاحية:

الخطبة،العدو،أمامكم،البحر،وراء كم،الصّبر،اللئام،سيوفكم،الحجاج،المصطلح،القاعدة،الروابط،ا لخاتمة،

النّصّ:

"أيُّها الناسُ، أين المفر، البحر من ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليسَ لكم والله إلا الصِّدقُ والصَّبر. واعلمُوا أنكم في هذه الجَزيرة أضيعُ من الأيتَام في مَأدبَة اللئام، وقَد استقبلكم عَدوُّكم بجيشه، وأقواته موفورَة وأنتم لا وزرَ لكم إلا سُيوفكم، ولا أقواتَ لكم إلا ما تَستَخلصونه مِنْ أيدي أعْدائكم .

وإنْ امتدتْ لكمُ الأيَّامُ على افتقاركُم، ولم تُنجِزوا لكم أمْراً، ذهبَتْ ريحُكم، وتعوَّضَت القلوبُ من رُعبِهَا مِنكمُ الجُرأةَ عَليكم، فادْفَعُوا عن أنفُسِكم خُذلانَ هذه العَاقبة منْ أمركم بمنَاجزَة هذا الطاغيَة، فقد ألقتْ به إليكم مَدينتُه الحصينَة .

وإن انتهَازَ الفرصَة فيه لمُمْكنٌ إنْ سمحتمْ لأنفسِكم بالمَوت، وإنِّي لمْ أحذِّركم أمْراً أنا عنه بنجْوة، ولا حمَّلتكم على خطة أرخَص فيهَا متاع النفوس إلا وأنا أبدأ بنَفسي. واعلمُوا أنكم إنْ صَبرتُم على الأشقِّ قليلا استمْتَعتمُ بالأرفَه الألذِّ طويلاً، فلاَ ترغبُوا بأنفسِكم عَن نفسي، فمَا حظكم فيهِ بأوفَى مِنْ حَظي .

وقد بلغَكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحُور الحسَان من بنات اليُونان الرافلات في الدُّرِّ والمرجَان، والحُلل المنسُوجة بالعقيَان، والمقصُورات في قصُور المُلوك ذوي التيجان. وقد انتخبَكم الوَليدُ بن عبد المَلك أميرُ المؤمنينَ من الأبطال عزبَانا، ورَضيَكم لمُلوك هذه الجَزيرة أصْهَارا وأختَانا ... ليكونَ حظهُ منكم ثوَاب اللهِ على إعْلاءِ كلمتِه، وإظهَار دينِه بهَذه الجَزيرة، وليَكونَ مغنَمِها خالصًا لكمْ منْ دونِه ومِن دونَ المؤمنينَ سِواكم، واللهُ تعالى وَليُّ إنجادِكم على مَا يكونُ لكم ذِكرًا في الدَّارَين .

واعلمُوا أنِّي أوَّلُ مُجيبٍ إلى مَا دَعوْتُكم إليْه، وأنِّي عند مُلتقَى الجَمْعين حَاملٌ بنفسِي على طاغيَة القوم لذريق فقاتله إن شَاء اللهُ تَعَالى، فاحْملوا مَعي، فانْ هَلكتُ بَعدَه فقدْ كفيتُكم أمرَه، ولمْ يُعوِزْكمْ بطلٌ عاقلٌ تَسنِدون أمُورَكم إليْه، وإنْ هلكتُ قبلَ وصُولي إليْه فاخلفوني في عزيمَتي هذه، واحمِلوا بأنفسِكم عليْه، واكتفوا الهَمَّ مِن فَتْح هَذهِ الجَزيرَة بقتلَه، فإنَّهم بَعدَه يُخْذلون ."

المقدّمة:

تعتبرُ خطبَةُ طارق بن زياد نَصًّا إبداعيّا يشهدُ على فترة منَ التّوسُّع الإسْلامِيّ فكريًّا وجُغْرافيًّا في كُلِّ أنحَاء العَالم، وفي الغَرب الأوربي خَاصَّة، وهيَ خُطبَة تجْمَعُ إلى جَانبِ القَصْد الدِّيني في نَشر الدّعْوة الإسْلاميَّة وراءَ البَحر غَربًا،فَهي تحْتَوي الخُطّةَ العَسْكريَّة في كيفيَة سيَاسة الجُند، وحثّهم على مُواجَهة العَدوّ أولا، ومَعرفَة كيفَ يَستطيع القائدُ المُحَنّكُ أنْ يَنقُلَ المَعركَةَ إلى ديَار خَصمِه بكلِّ قوّة و اقتدَار متأكّدًا منَ النّصْر،ومُوقنًا به.ثانيًا، وكيف يستطيعُ القضاء على قائد العدوّ بغرض إنهَاء الحَرب، وإعْلان الانتصَار.وكذلك في مَعْرفَة دخَائل نُفوس جُنُودِه ومَا اللغَة التي تُناسبُهم في هَذه الحَالة..

وقد وجدتُ الدّافعَ إلى دراستها مرتبطا بالتاريخ في أزهَى فتراته، وحاولتُ ربطَ مَا أنتجَه هذا القائدُ الفذّ بمَا أنتجَه الفكر الإنسَانيُّ من نظريات ومناهج دراسية لفعل الكلام هذا، فكانت المقاربَةُ الحِجَاجيَّة منهجًا لها، خلُصْتُ من خلالَها إلى أنّ أحداثَ التاريخ يُمكنهَا أن تُصنَعَ مِن اللاشيءِ، إذا كانَت النّوايَا **صادقة** والعزائم **مخلصة**، ولبِسَا معا **الصّبرَ**..وعليه فالصّدقُ والإخلاصُ والصّبرُ، إذا اجتمعتْ صنعتْ صَحيفَةً كُتبتْ في مُروج ذهَب التَّاريخ.

العرض:

هَل نَقولُ إنَّ الخُطبَةَ عَمل فنّي؟ وَنَقصدُ بالعَمَل، القعُودُ له، وتوضيبُه، وحُسنُ صِنَاعتِه، وبالتالي هَل نَعْتقد أنَّ طارق بن زياد قعدَ له هذا المقعد، وترصَّدَ له كما يفعل الكُتّابُ والخطباءُ..؟؟

لا تَذكرُ كُتُبُ التاريخ ذَلكَ، ولا تُشيرُ إليْه، ولمْ يحفل أحَد بالإشَارة أنَّ الفَاتح بنَ زياد قد اهتمَّ بصناعةِ الخُطبَة، بل إن منهُم مَن يَقول:"، إنَّ طارق بن زياد لمّا استقرَّ بأرض الأندلس، وبلغ دنوّ لذريق منه قامَ في أصْحَابه، فَحَمد اللهَ وأثنَى عليْه، ثمَّ حثَّ المُسلمينَ عَلى الجِهَاد ورغّبَهم في الشَّهادة، ثم قال:"أيها النَّاس، أيْن المفر...؟" كما ذكر المقري([1])، وابن خلكان ([2]) . أمّا ابن هذيل الأندلسي، فقال: "..فاقتَتَلوا ثلاثةَ أيَّام أشَدَّ قتالٍ، فرأى طارقُ ما الناس فِيه مِنَ الشّدَّة، فقام يعظهُم ويحضُّهم على الصَّبر و يرغّبهم في الشَّهادة ثمَّ قال: أين المَفر؟ البَحرُ مِن وَرائِكم والعدوُّ أمَامكم.".

وإذا صحّت روايَة ابن هذيل، فلا يُعقلُ أنَّ الرَّجُلَ تهيّأ للخُطبَة، والمَعرَكَةُ مُشتدٌّ أوارُهَا، مُرتفعٌ غبَارُها، ثمَّ انْصَرفَ إلى نَاحيَةٍ ليكتبَ، أو يَصْنعَ خطابًا حَمَاسيًّا

ومَهْمَا يكنْ منْ أمرٍ فالأكيدُ أنَّ الخُطبَةَ أوجدتْها حَالة واحدةٌ وظرفٌ لا يختلفُ حَولهُ المؤرخُون: وهو فَتحُ الأندلسِ، سَواء أكانَ قبلَ المَعْركة، والتحَام الجُيُوش، أم بَعدَ التحَامِها، وقَد اشتَدَّ في المَعركة أوارُها.

أ/ **مشكلةُ المُصْطلح**:

حتَّى نَدْخُلَ الدّراسَة بأمَان لابُدَّ مِن إزالَة مُشكلَة المُصْطلح في التَّحْليل المُعْتمَد وهوَ (الحِجَاج). فَمَا المقصُودُ به؟ إنّه:"..عَمَليَّة فكريَّة تترابطُ فيهَا الحُجَج والأدلَّة بنَاءً عَلى طريقَة تُعْرضُ بهَا الفكرَةُ المعبَّر عَنْهَا للإقنَاع بها .."([3]).كما تَحملُ المفردةُ في ذاتِهَا دَلالةَ الإقناع والتَّأثيرِ في المُتلقّي أيْضًا، فهُوَ يَقومُ عَلى مَبْدَإ الإقنَاع والدّحْض.

"وربَّما كانَتْ وظيفتهُ مُحَاولَةُ جَعْل العَقل يُذعِنُ لمَا يُطرحُ عليْهِ مِن أفكَار أو يَزيدُ في دَرجَة الإذعَان إلى حَدّ يبعثُ عَلَى الفعْل المَطلوب.."(4) .ويَرَى آخَرونَ إنّه مَأخُوذٌ مِن جِذرٍ لاتينيّ قدِيم:" والتِي تَعنِي إظهَارُ الشّيء، وَتلميعُه .."([5])

وإذا كان الحِجَاجُ كظاهرةٍ تتعلقُ باسْتِعمَال اللُّغَة، فَالأكيدُ أنَّه : "منَ الضَّروري البَحثُ في بنيَة اللغَة ذاتيًّا عَن الآثار التِي يُخلِّفهَا فيهَا هَذا الاسْتخْدَامُ الحِجَاجي.."([6])

إنّ خُطبَة طارق بن زيَاد قدِ اسْتوفَت وجُودَ طرفَين رئِيسيَين يمكّنَانهَا مِنْ أنْ تكونَ خطابًا حِجَاجيّا وهُمَا :الحُجَّة والنتيجَةُ : "إنّ الحُكمَ عَلى خِطابٍ مَا بأنّه خِطابٌ حِجَاجي يقتَضِي احْتِواءَه عَلى مَلفُوظين اثنَين عَلى الأقلِّ ؛ يقومُ أحدُهُما بتَعْليل الآخَر،فيُسَمَّى الأوَّل حُجَّة الرَّأيِ المَعرُوض،وَالثانِي نَتيجَة لحُجَّة الرَّأيِ المُعَارِض"(7). وَمِن هُنَا يكونُ الدُّخُول إلى نَصّ الخُطبَة مُحَاولا تَحليلَه باعتمَاد المُقاربَة الحِجَاجيَّة. كَمَا أنَّهَا وظّفتِ اللغَةَ في بِنيتِهَا توظيفًا ذي أبعَادٍ دلاليَّة ... وللإجَابَة عَن السُّؤال المَدخَل، لا بُدَّ مِن توافر عَوامل مُعيَّنة في أيِّ عمَل حتَّى يتَّصفَ بالفنيَّة.. "إنَّ العَملَ الفنِّيَّ الحقَّ، هوَالذي يَجْمَعُ ــ إلى جانبِ توافره على مواقفَ إنسانيَّة نَبيلة، وأفكار رَفيعَة ـ عناصرَ الاتِّسَاق والانسجَام والإثارَة والإحسَاس بالجَمَال.."([8])

فهل حَقَّقتِ الخطبَةُ هَذهِ العنَاصرَ؟

ليس سَهلاً الجواب بنعم ..دون إثبات قوالب التَّحقيق، لسَانيًّا، ولغويًّا ..وليس صحيحًا الاعتقادُ بغير ذلك..ولكنَّنا نميلُ الآنَ إلى التَّحليل الحِجَاجيّ..وما قام به الخَطيب في سَبيل إيصَال رِسَالته إلى الجُند، والظرفُ لا يتطلبُ غيرَ تلك الرِّسَالة الصَّريحَة، الفَصيحَة .

فَمَا الذِي حَدَثَ؟

الذي حَصَل :إتيَان خُطبَة، تُعتبرُ مَرجعًا في فنِّ الخَطابَة، وخُطة عَسْكريَّة، ومادّة تأريخيَّة، وأنموذجًا في التَّصدّي للمِحَن، وقتَ الإحَن..

والمقصود بالحِجاج.." تعني لفظةُ حِجاج في اللغة العَربيَّة المُنازعَة بالحجَّة أوالدَّليل أو البُرهان، أي مُقابَلة الحُجَّة بأختها.."(9). كمَا يُعرِّفُه ماس:"سِياقٌ من الفِعل الكَلامِي تُعرَضُ فيه فرضيَّاتٌ وادِّعَاءاتٌ مُخْتلفَة في شأنِها.."(10)

فَمَا الذِي فعَله الخَطيبُ كلاميًّا ؟ ومَا الذِي عَرضَه مِنْ فَرضيَّات؟

إنَّ الخَطيب لا بُدَّ لهُ مِن اسْتِعمَال وسَائل عِدَّة لإقنَاع المُسْتقبِل، أو المُتلقِّي، وكانَ ابنُ زياد في هَذا الظرف فِي أمَسِّ الحَاجَة إلى هَذا الفِعل الكَلامِي..

قَواعِدُ الحِجاج فِي الخُطبَة:

القاعدة الأولى:

لقد مَارَس منذ الوَهلة الأوْلى سُلطةَ القائد، وأثبتَ أنهُ يتصَرَّفُ مَعَ جُندهِ تصرُّفَ العارفِ بخَبايَا الحَرب، ومَكامِن نُفوسِ الجُند، وليسَ في مَوضع اختبَار،أو مَوقعَة تَحتَاجُ التجريبَ والملاحَظة، ولكنَّه اعتمَدَ الترهيبَ: [العَدوُّ أمامكم..] فالأمر يتطلبُ الحزَم، والقوَّة لمُقاتلتِه وعَدم التَّفكير فِي التَّولي أو التراجُع، لأنَّ:"البَحرَ مِنْ ورائِكم."

وهم أشبَه بالأيتَام في مأدبَة اللئام..فإنْ كانَ عدوُّه لئيمًا، فالحَال أنَّه أضيَع وحَاله أبشَع، وأمْرُه إلَى الهَلاك أوْقَع..

فالقاعِدَة الأولى هِي : التَّرهيب..ليسَ لهم بدَّ مِنَ الحَرب : النَّصرُ أو الشَّهادة..

وهي قاعِدة تبيِّن بجِلاء مُمارَسَة التأثير الفِكري المنْهَجي عَلى المُتلقِّي[الجندي] ويتّضحُ منَ العبارة أنَّ البِنيَةَ حملتْ المَعنى من خلال التَّضاد [وراء كم/أمامكم] الذي لحقَ الاستفهَام [أينَ المفرُّ؟] ولمّا

ارتبط الوراءُ بالبَحر وهُم منْ دونِ مراكبَ تنجيهم، والأمَامُ بالعَدُوّ، فقد تَجَاوَزَ المَعْنَى إِلَى [مَعْنَى المَعْنَى][11].

وعلى هذا يتّضحُ أنّه اسْتعمَل قاعدَة (الكَمّ)[12] وَمِنْها نَستَنتَج أنّ : "..الحُجّة حَقيقَة تفاعليَّة تتجلى في تزاوج القصْدِ والتكلُّم كالاستمَاعِ والسّياقِ واندمَاجِها جَميعًا فِي بِنيَة مَقَامِيَّة واحِدَةٍ تؤهلهَا لأنْ تكونَ عَمَلاً حَقيقيًّا مَلمُوسًا ذا خَلفِيَّة عَقليَّة .."[13].

لقدْ خَاطبَ الكلّ دُونَ اسْتثْنَاء .وكَانَ التفَاعُل بيْنَ القصْديَّة والسّيَاق، وحَلّ الاندمَاجُ فِي بِنيَة فَرضَها المَقامُ، وَأبْلغَهَا(المَقال).

القاعدة الثانية:

ولأنَّه ليسَ من الضَّروري أنْ يكونَ الجُندُ كلهُم في حَالة مِنَ الشدَّة، والمناجزة للعَدوِّ، فقد ارتقَى في أسلوبِ الخِطاب، ليكونَ التَّعْجيلُ بالنَّصر .فالاستجابة يجب أن تكون من الجميع، ولتحقيق ذلك ينبغي أن يكون التبليغ بغرض ". تحقيق الإثارة وإحْدَاث انفعَال مُعيّن لدَى المُتلقِّي، بفضْله يَستَجيبُ لفَحْوى الخِطابِ وَيتَهَيَّأَ لقَبُول نتائجه والتسليم به.."[14] ومَا ينْجَرُّ عنْه منْ نَعيمٍ دنويٍّ والإقبَالُ على المَوت والشَّهادة ومَا يُقابلهُ من نَعيم أخْرَوي، مِنْ أسُسِ التَّرغيب في المقاتلة بقوَّة لا تلينُ، وعزيمَة لا تفترُّ، بل إنَّ الدَّعْوةَ إلى النَّصْر السَّريع، عَاجلا غير آجل.

"وإنْ امتدَّت بكُمُ الأيَّامُ عَلى افتقاركم، ولم تُنْجِزوا لكُمْ أمْرًا، ذهبتْ ريحُكم، وتعوَّضَت القلوبُ من رُعبِهَا منكمْ الجرأةَ عليكُم "..

القاعدة	البنَاء	العلِة/الحجَّة	المقابل	الخذُلان
التعجيل بالنّصر	الإسْراعُ في الإنجَاز	لم تُنجِزوا لكُمْ أمْرا	ذهبتْ ريحُكم	الجُرأةُ عليكُم

وحُجَّة الإسْراع بالنَّصر، عدَمُ ترك الفرصَة للعَدو لاسْترجَاع الثقة بنَفسِه، ومُسَاورة فكرة الصَّدِّ، وإرجَاعَ جَيش المُسْلمينَ.. فالقاعِدةُ الثانيَّة هي: التَّعجيل بالنَّصْر. ولتَوضيح القاعِدة أكثرَ يُمْكنُ رسْمُهَا في هَذا الجَدْوَلِ:

والمُلاحظ أنْ العبَارة الأولى في البنَاء، تناسِبُهَا العبَارة الثانيَّة في خَانة العِلة/الحُجَّة: [لَمْ تُنْجزوا لكُمْ أمْرا..] وَليْسَ منَ المَعْقُول أنْ يكونَ التعجيلُ بالنّصر ناتجا عَنِ التّخاذل، وعليه فقد أراد أنْ يَجْعَلَ منَ الخذُلان [في حَالة المُسَاورة/أوالتردّد] علّة عَليهم وحُجّة في الانكسَار لا الانتصَار، ولهذا طلبَ الإسراعَ في التّنفيذ .

فكأنّ المَهمَّة التِي مِن أجْلهَا تمَّ قطعُ البَحر،وقَطعُ وَسِيلة الرُّجُوع.[حرق السّفن] لم تنجز، وبالتَّالي فليْسَ لهُم مِنْ مَلجَإٍ إلا البَحْر، أو مُقارعَة العَدُوِّ بالقوَّة والحَدِيد..إنّه الترّهيب : كونوا أولا تكونوا .

القاعدة الثالثة :

التَّعريضُ..ويُقصَدُ به استعمَالُ ما ألفَه المُتلقِّي في الخِطابِ عَلى غَير ما يُريدُه الخَطيبُ مِن الاسْتقبَال..ونَجدُه في الخُطبَة بدَاية فِي قَولِهِ:"وقدْ اسْتقبلكُمْ عدوُّكم بجَيشِه، وأقواتُه مَوفورَة"..

فقدِ اعتادَ النَّاسُ استعمَال لَفظَة [استقبَال] لِمَن كانَ ضَيفًا.تَجبُ وفادتُه،ويليق تكريمُه.

لكنَّ الخطيبَ استعمَلها هنَا ليدَللَ أنَّ العدوَّ في مَوقفِ المُقتَدر،وأنَّ الجيشَ في مَوضع العنْصِر الدَّخيل عَلى المَوقع، وليسَ لهُ من خيَارإلا إثبَاتُ الحَالَة، وخاصَّة أنَّه أردفَها بجُمْلة اسميَّة وقعتْ حَالا.[وأقواتُه مَوفورَة] . وهوَ منْ قَبيل التَّعريض كقوله تعالى:".. فبشرهم بعَذابٍ أليمٍ."(الانشقاق 24) فالبشَارَة لاتكونُ للسَّيئِ منَ الأمْر، ولكنَّها للخَير والجيِّد و نَجدُه في النَّص في مَوقعٍ آخَر كذلك:" وإن انتهَازَ الفُرصَة فيهِ لمُمْكن إنَّ سَمَحتم لأنْفسِكم بالمَوْت.."فالسَّمَاحُ للنَّفس، لا يَكونُ بالمَوْت بَل بِأمْرٍ آخَر.و هَذه القاعِدة يمكنُ أنْ نَصِفَها بالحِجَاج الخَاطِئ، فهُو يُوهمُ بالشَّيء، ويَقْصِدُ غيرَه، ويُمكنُ أن تُحْدِثَ في نَفْس المُتلقِّي ثغراتٍ في الاسْتقبَال، سَببُها بِنيَةُ الصِّياغَة، وظرفُ الخِطاب.

ويَنتجُ عنْهَا طرحُ أسْئِلة اسْتكشَافيَّة/ :

1/ هل أنا في مَوضع الضّيْف؟

2/هل يستقبلُ المضيفُ ضَيفَه بالسَّيف؟

3/هل المُحَاربُ لا يَسْمَحُ لنفسهِ بالمَوت؟

4/هل المَوتُ كائن حيٌّ ؟أم هو مبتغَى المُقاتل المُسلِم/الشهادة..

القاعدة الرابعة:

حُجَّة السُّلطة:

تقوم هذه الحُجَّةُ في النَّصِ عَلى فكرة الأمر،والاسْتجَابة له، فالقائدُ يَخترقُ بنَصّه عقلَ الجُند ليكونَ له سُلطانُ الأمْر .وفرضُ السُّلطة، والسَّيطرةِ عَلى المَوقف مِن حَيثُ هَو ظرفٌ لا يَقبلُ اللّيِنَ أوِ التَّراخِي..

وفلسفَة القوَّة لا يَعدمُها ظرفُ الحَرب، ولا يفقدُها قائدُ المَعْركَة، وفي النَّصِ نَجِدُها منتشرةً في أكثرَ من مَوْضع، منْها:

"وأنتم لا وزرَ لكم إلا سُيوفكم"..النفي والاستثناء.

..."، فادفعوا عن أنفسكم خُذلان هذه العَاقبة مِن أمْركم بمُناجَزة هذا الطاغيَة"..

الفاء/الجر/الإشارة[15]

.."وقدْ انتخبَكم الوَليدُ بن عبد المَلك أميرُ المؤمنينَ منَ الأبطال عُزبانا.."

العطف/قد التي للتحقيق/ الجر..

"..ملتقى الجَمعين حَاملٌ بنفسِي على طاغيَة القومِ لذريق فقاتلُه إنْ شاء اللّهُ تَعالى.."

حروف الجر/ الفاء الرابطة/ الشرط

لقدْ كانَ الخطيبُ يَحملُ فكرَ القائدِ المُحَنَّك، والبَطلِ المُتمرّسِ بأمُورِ الحَربِ، وأخْلاق القيَادَة، والعِلمَ بسَايكولوجِيَّة المُحَارب..

وحَتَّى يكونَ خطابُه مُؤثرا، لمْ يُؤْثرْ نَفْسَه عليهم، ولمْ يكنْ بأفضَلهم، أوْ يدْعُهم إلى مَا لاَ يَقومُ به هُو..

فَالسُّلطة تَفرضُ علَيْه أنْ يكونَ حَكيمًا في سِيَاسَة الجُند..مُقدمًّا نفسَه في المَعْركة، مظهرَا أحسَنَ البَلاء، ليكونَ لهُم القدوَة والمَثل، وليُحَقِّقَ بهم مَا جَاءَ منْ أجْلهِ.. "..واعلموا أنِّي أوَّلُ مُجيبٍ إلى مَا دعوتُكم إليْه"..

وفي هَذِه الجُملة المَعنى يَفيضُ عَن الحَاجة حينَ استِعمَال الأَمْر وتوْكيدِه وهوَيُبطِنُ الغَايَة بالترغيبِ في مَوضع الشدَّة."... ورضيكم لملوك هَذه الجَزيرة أَصْهارًا و أَخْتانا، ليكونَ حظُّه منكم ثوابَ اللهِ على إعلاءِ كلمته، وإظهَار دينه بهَذه الجَزيرة، وليكونَ مَغنمُها خالصًا لكم مِن دُونِه ومِن دُونِ المؤمنينَ سِواكم، واللهُ تعَالى وَليُّ إنْجادكم على مَا يكونُ لكمْ ذكرًا في الدَّارَين"...

يتكلمُ عن المصَاهرة في زمَن الحَرب، وعَن الفَوز بالمَغَانِم، في زمن [السَّماح للأنفُس بالمَوت] كما يَقولُ الخَطيبُ.. ولكن التَّرغيبَ يَسْمُو عَن كلِّ هَذا حِينَ يتكلمُ عن إعلاء كلمَة الله تَعالى، عندَها لا يكونُ الإغْراءُ بالمُصَاهَرة، ولا بالمَغانم، ولكنْ بثوابِ الله تَعالى"..ليكونَ حَظه مِنكم ثوابَ الله عَلى إعْلاءِ كلمتِه، وإظهَار دِينِه بهَذه الجَزيرَة"..

ويتضِحُ السِّياق أكثرَ في هَذا الجَدول:

وفي السِّياق ذاته هذه الحُجَّة

القاعدة	البنَاء	الحُجَّة/العلة	المقابل
النصر على العدو	مغانمه خالصة لكم	سلطة المال	الذكر في الدارين(إغراء مادي)

والنتيجة:

دعوةٌ إلى البَلاء في المَعركَة.. ولم يَفصلِ الخَطيبُ حِجَاج السُّلطة، عَن حُجَّة 1/التَّبرير:" ورضيكم لمُلوك هَذه الجَزيرة أَصْهَارا وأَختانًا.." .

2/ والتَّعليل ":..ليكونَ حَظُّه مِنكم ثوابَ الله عَلى إعْلاءِ كلمَتِه .وإظهَار دِينِه بِهذِهِ الجَزيرَة"..
هذا مَا كانَ مِن حَظ الخَليفة مِن جُندِه..

القاعدة	البناء	الحجة/العلة	المقابل	المنحنى
النَّصرُ عَلى العَدو	إظهار دينه بهذه الجزيرة	سُلطة الدِّين	ثوابُ الله(إغراءٌروحِي)	ارتقاءٌ

فَما حَظ الجُند مِن هَذه الحَملة العَسْكريَّة؟..

"1/الإغراء:" وليكون مغنمُها خالصًا لكمْ .."

2/ التفضيل :"مِنْ دونِه ومنْ دونِ المُؤمنينَ سِواكم"..

فتبريرُ المَعْركَة، وفَتح الأنْدلس للخَليفَة، إعْلاءُ كلمَة الله/ وثوابُ الله، وأمَّا الجُنُدُ فلهُم مثل ذلك وزيَادة..

فأما مثل ذلك:

"..والله تعالى وليُّ إنجَادِكم عَلى مَا يكونُ لكمْ ذكرا في الدَّارين.. " وأمَّا الزيَادَة: الإغراءُ بالماديَّات[المصَاهرة/المَغانم الخَالصَة" والمفاضلة عن غيرهم بالرُّتبَة والمَنزلة وهذا الحِجَاجُ يدخُل ضمنَ السُّلَّم الحِجَاجيّ، ونقصدُ به تبْريرُ ما يَذهبُ إليهِ الخَطيبُ مِنَ القَول، من حيثُ :"هو تَلازمٌ بينَ قَولِ الحُجَّة وتبْريرِهَا]([16])

وكانَ هُنا التبريرُ المقدَّمُ واضحًا، كأنَّه يجيبُ عن طرح أسَاس:

أستجيبُ/لماذا؟

أحاربُ/لماذا؟..

أنتصرُ في المَعركَة/مَاذا أسْتفيد؟

أسْتشهدُ في المَعركَة/مَاذا يَحْدُث؟

إنّ الخِطاب قدْ أملته حَالة ظرفية منَحتْه اللغَة قوّة الحُجّة، وحُجَّة القوّة أيْضًا، لقد:"صَار بعدًا ملازمًا لكلِّ خطابٍ عَلى وجْه الإطلاق، والسّببُ في ذلك أنّ كلّ خِطابٍ حَالٍّ في اللغَة تمنحهُ هَذه الأخِيرَة العَناصرَ الأوليَّة والقاعديَّة لكلّ حجَاج، أيْ عَناصرَ الاستدلال والتّدْليل.." ([17])

قاعدة الربْط الحِجَاجي:

والمقصودُ به مَا تداوَله الخَطيبُ مِن رَوابطَ دَاخل نَصّه، لتَحقيق الوَظيفة الحِجَاجِيَّة.

وهَذا الجَدَول يبيّنُ الرَّوابط المُختلفَة التِي اسْتعمَلهَا الخَطيبُ هنا:

العبارة	أيُّها الناس	أين المفر؟	ليس لكم	والله	إلا الصبر والصّدق	إن امتدّت لكم الأيام	فادفعوا	ليكون ثوابه منكم	فقد ألقت مدينته إليكم
الرابط	النداء	استفهام	النفي	القسم	الحصر/العطف	الشرط/ حرف الجر	ف/ الرابطة	لام التعليل	قد

قاعدة :الطاعة /الاستطاعة:

ونقصدُ بها مَا يُحْدثه الخَطيبُ من تجَاوب مَع جُندِه، حِينَ يطلبُ مِنهُم إنجَاز أَمْر بالمَقدور تَحقيقُه، ولا يُكلفُهم مَا يعْجزُونَ عَنهُ..والقاعِدَة فِي ذلك:إذا أردتَ أنْ تطاع، فامُرْ بمَا يُسْتَطاع..والخَطيبُ لا يَأمرُ الجُندَ، ويبتَعدُ هوَ عَن الإنجَاز، بَلْ يَتَقدَّمُهم : " واعْلمُوا أنِّي أوَّل مُجيبٍ إلى مَا دَعَوْتكم إليْه"..

فهِيَ دعْوَة إلَى:" افعَلوا، وأنَا أوَّلُ الفَاعلينَ"..وهي تَشِي بأخْلاق القَائد المُطاع.وتكشفُ عَن قُدْرتِه العَسْكريَّة، وأخْلاقِ البُطولَة..أوما كانَ يُعرفُ قديمًا بأخْلاق الفُرسَان.ومَوضعُ هذا متَعدِّدٌ في النَّص :

وهذا الجَدْولُ يوضِّح أكثرَ:

العبارة	المأمول	صفة القائد
وإن انتهازَ الفرصَة فيه ممكنٌ	إمكانية الانتصار	بثّ الروح القتالية
وإنّي لم أحذّركم أمرا أنا عنه بنجوة	الاقتداء واقتحام المعركة	يتقدّم الصفوف
ولا حمّلتكم على خُطّة أرخص فيها متاع النفوس	تضحيَة الجميع بالنّفس	رسْم الخطة الناجحَة
الصُّفوف واعلمُوا أني أوَّل مُجيب إلى مَا دَعوتكم إليْه	السَّمْع والطاعَة	القدوَة والشّجَاعَة
فاحْمِلوا مَعِي	طلبُ المُسَاعَدَة	الإقدام.
لم يُعوِزكم بَطل عَاقل تَسندُون أموركم..	تهيئَة القائد الذي ينوبُه	معرض للقتل
فاخلفُوني فِي عَزيمَتي هَذِهِ	طلبُ الخِلافة فِي القِيَادَة	القوّة النّفسيَّة

احملوا بأنفسكم عليه،واكتفوا الهمّ بقتله..فإنّهم يخذلون	مقاتلة العدو والتركيز على القائد	انهزام الجيوش بقتل القائد

والنتيجَة التِي نتوصَّل إليهَا بَعدَ هَذا التَّدرج المَنطقِي:
الانتصَار الحَتمِيّ بَعدَ القَضَاء عَلى قَائد جَيش العَدوِّ

الخاتمة:

إن هذه الخُطبَة، تُعتبَر مِن رَوائع الأدَب العَربِي، على الرُّغم ممَّا لحِقَهَا منَ النُّعوت، ومَا شابَها مِن صُروفِ الأدبَاء، ومَا أسَالتْه من حِبر المؤرِّخينَ، في النِّسبَة حِينًا، والنَّفي آخر .وما لحقَها من إضَافات لا ينكرُها أحَدٌ، بل ومَا أرادَه بعضُ المسْتشرقين من قتل رُوح الجهَاد فيهَا، بأنْ أفرغُوها من محُتَواها الرُّوحي، وأخْضَعُوا معَانيهَا النَّبيلة للمَادَّة، والبَحْث عن الحُور الحِسَان، ومَا أنجبَت الجَزيرة من بنَات [اليُونان] وأنشأتْ مِنَ القُصُور والعُقيان..الخ، كلّهَا ممَّا يُريدُ هؤلاءِ دَفع المُتلقِّي للخُطبَة أنَّ الفتح كانَ لهَذا الأمْرِ الدُّنيَوي فقط، ولا بُدَّ أنَّ زَوالَه ضَروري بَعدَ تحَقُّقه.. وهذا أمرٌ أبعدَ مَا يكونُ عَن الحَقيقة التاريخيَّة، بل والجُغرافية: وإلا مَا شأن بناتُ اليُونان؟ ومَا دَخلهنَّ هنَا وهن أبعدُ مَا يكنَّ مكانا عَن الأنْدلس.....

وقد ظهرتْ أخلاقُ البُطولة، والفرسَان في القائد الفَاتح طارق بن زيَاد، وَهي أخْلاقٌ لم تكنْ لتنُكَرَ، أو تَخْفَى عَلى أحَد..والخُطَّة المقدَّمَة تبيِّنُ ذلكَ بوضُوح، وتردُّ أمرهم المَفضُوح:

"جئتم لفتح الجزَيرة، وإعْلاءِ كلمَة الله، وليستْ لكم غَايَة أخْرى، وأنا أوَّل مُستَجيبٍ إلى مَا دَعوتُكم إليْه، حَاملٌ عَلى العَدُوِّ، فقاتله، فإنْ هلكتُ قبلهُ، فلا تتركوهُ، وإنْ هلكتُ بعْدَه فاخلفُوني، وبقتل القائد تُفتَحُ الجَزيرةُ"..

هذا مُلخَّصُ الخُطبَة، وهَذا القصدُ منْها، ومَا وراءَ ذلك يبقَى ثريًّا لمِدَاد الدَّارسينَ، عُقول الفَاتحينَ في الدِّراسَات الأدبيَّة، ولِمَ لا العَسْكريّةِ؟؟

الهوامش:

[1]/ المقرّي / نفح الطيب : 240/1.

[2]/ ابن خلكان .وفيات الأعيان 177/2 ـ 178 طبعة بولاق. في ترجمة موسى بن نصير.

[3]/ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ج 1 ،ص 446.

[4]/ نعمان بوقرة، مدخل إلى التَّحليل اللساني للخطاب الشعري. عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، إربد، ط1، 2009 ،ص106.

[5]/ . حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج، مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ،عالم الكتب الحديث، الأردن،ط1 ،2010، ج 1،ص2.

[6]/ رشيد الراضي، "الحجاجيات اللسانية عند انسكومبر وديكرو"، مجلة عالم الفكر، مجمد 34 ،عدد1 ،الكويت، سنة 2005 ،ص 225.

[7]./ حسان الباهي، العمل والبناء الحجاجي، ضمن كتاب الحجاج مفهومه و مجالاته، ج1، ص 216.

[8]/ نعمان بوقرة: مدخل إلى التَّحليل اللساني للخطاب الشعري.عالم الكتب الحديث.2009ط.1ص:110

[9]/ ينظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط6 ،بيروت، لبنان، 1997 مادة حجج، وجدل.

[10]/ محمد العبد ،النص الحجاجي العربي ،دراسة في وسائل الإقناع. ص: 44

[11]/ الجرجاني(أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن)، دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي، بيروت ط3 1999، ص203

[12]/ آن روبول/جاك موشلار، التداولية اليوم:علم جديد في التواصل ،تر/سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني دار الطليعة للطباعة و النشر، لبنان، ط.1.2003.ص:53

[13]/ طه عبد الرحمن،اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، ط1 .1998 ص269

[14]/ سامية الدّريدي. دراسات في الحجاج. عالم الكتب الحديث.ط.1. 2009.ص:131

[15]/ وهذا ما سنجده في (قاعدة الربط الحجاجي)لاحقا.

[16]/ نعمان بوقرة:مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري. عالم الكتب الحديث.2009ط.1ص:108

[17]/ حسن خميس الملخ، الحِجَاج في الدَّرس النَّحوي مجلة عالم الفكر ،ع2، ـ40، أكتوبر، ديسمبر2011، ص124 .